مقدمة

لماذا الحوار؟ سؤال قد يتبادر إلى ذهن نوعين من القراء، القراء الذين انصرفوا عن الأدب كلية، خاصة أدب العقود الثلاثة الأخيرة، بعد أن يئسوا من التجاوب مع الكتابات "الحداثية"، والقراء "الحداثيين" الذين قد يجدون في كلمة الحوار إيحاءات الدردشة والنقد "الفاضي" أو "الفوضوي" الذي لا يستند إلى "علمية" النقد؛ قد يقول النوع الأول: إن الأدب "الحداثي" أو "الحديث" مغلق لا يمكن أن يقيم القارئ معه أي حوار لأنه طلاسم لا يمكن فكها أو سبر أغوارها.

أما النوع الثاني من القراء فقد ينفي الحوار لأنه يريد دراسة تتكون من مثلثات ومربعات وجداول وإحصائيات وهلم جرا من "الأدوات النقدية/ العلمية" التي تصرف القارئ عن النص النقدي وبالتالي عن النص الأدبي موضوع التناول؛ خاصة أن هؤلاء "الحداثيين" يستريبون في دلالات

obeikandi.com

الحوار، لأنهم لا يريدون أن يسمعوا إلا صوتهم، الصوت الواحد الذي يزعمون أنهم يرفضونه.

الحوار ضرورة حضارية بالنسبة لنا كعرب في الوقت الحالي على جميع المستويات: السياسية والاجتماعية والثقافية، الخ. فعلى المستوى السياسي يمثل غياب الحوار العائق الأساسي في سبيل اتخاذ قرار يخدم مصالح جميع الأطراف سواء أكان على المستوى المحلي أم القومي.

وعلى المستوى الاجتماعي، تغشى الأفق الضيق في التفكير لعدة عوامل منها تدني مستوى التعليم وطمس طريقة التفكير الابتكاري عند الطالب وربما طمس أي نوع من استخدام العقل، وارتفاع صوت الجماعات "المتأسلمة" التي تنظر لكل الأمور من منظور ضيق، "أضيق من خرم الإبرة" كما يقولون، بل تريد أن تفرض صوتها على الجميع؛ بالإضافة إلى هيمنة ثقافة النفط؛ حيث يجيء من يعمل في الخليج بـ"الثقافة" الضيقة التي تشربها هناك لينشرها هنا ويتخذها أسلوبا للحياة، بل يدين أي أسلوب غيرها.

أما على المستوى الثقافي، فحدث ولا حرج، الكل يرفض الكل، فلا "الحداثيون"، أو بالأحرى من يطلقون على أنفسهم لقب "حداثيين"، يعترفون بمن عداهم، ولا التقليديون، أو إن شئت المحافظون على حضارتهم الذين لا يقبلون العولمة ولا الاغتراب ولا الفلسفات الغريبة عن تراب الوطن، لا يعترف هؤلاء بـ"الحداثيين"، وهنا يعلو صوت "الحداثيين" ويتهمون من يخالفهم الرأي بسوء النية والتخلف والرجعية وغير ذلك من الصفات التي تدل على انعدام الحوار.

قد تكون هذه المقدمة مبالغاً فيها، وقد يُنظر إليها على أنها "فرقعة" يراد بها لفت الانتباه والتلميع الإعلامي. على كل، كل شخص له الحق في أن ينظر إليها كيفما يشاء، لأن حق الاختلاف مكفول للجميع بشرط "لا ضرر ولا ضرار".

ننتقل الآن إلى علاقة العنوان بالدراسات التي يشتمل عليها الكتاب الذي بين أيدينا الآن.

obeikandi.com

كان هدفنا منذ البداية ألا نفرض على النص شيئا أو أن نستنطقه بما لا يقول أو نلوي ذراعه لنقول على لسانه أشياء لا تمت له بصلة، كما يفعل البعض ممن يكتبون "دراسات" مليئة بالأشكال والرسومات والمربعات والجداول والمثلثات، وكأنهم متخصصون في أحد فروع الرياضيات، لا النقد الأدبي. اتخذنا النص صديقا، نحاوره ونعايشه ونتواصل معه إلى أن نصل إلى المناطق الحميمة فيه لكي يبوح لنا بأسراره، وهذه الأسرار ليست خاصة بالنص وحده، فهي محملة بعوالق الحضارة العربية الواسعة التي كتب فيها ولها النص، الحضارة العربية في جميع مراحلها وأطوارها. فالنص الأدبي لا ينشأ من/في فراغ، بل يأتي في وقته ليلبي حاجات نفسية ووجدانية وثقافية وحضارية معينة في الحضارة التي يكتب فيها. وهذه الحضارة ليست مفروضة على النص، بل هي جزء أساسي منه، سواء أكان ذلك شعورياً أم لاإرادياً، قصدياً أم دون قصد. فالحضارة تظهر جلية في اللغة التي يكتب بها النص، كما علمنا أستاذنا المبدع

obeikandl.com

العربي الأصيل شكري عياد([1]). وكل طور من أطوار الحضارة يترك آثاره، وكلمة الآثار هنا ليس لها علاقة كبيرة بالمفهوم التفكيكي الدريدي، في اللفظ لدرجة أن اللفظ يكتسب إيحاءات كثيرة تخرج به عن معناه المعجمي الضيق لتلقي به في خضم الحضارة(العربية) الواسع. هذا على المستوى اللاشعوري أو غير القصدي. أما على المستوى القصدي، فيحاول الأديب استغلال إمكانات اللفظ وتوظيفها فنيا لتقول ما لا تستطيع أن تقوله آلاف الكلمات أو الصفحات من اللغة التقريرية. وهنا يكتسب النص ثراء دلالياً كبيراً يضمن له البقاء على مر الزمن والصمود في وجه النسيان.

وهنا نجد أنفسنا في مواجهة فلسفة التفكيك التي تقول: إنه لا يوجد شيء خارج النص، أو تقول: إنه لا يوجد مركز لأي شيء، فالنص، كما تزعم هذه الفلسفة، مجموعة من الدوال التي تنتج الدلالة من خلال اللعب الحر فيما بينها دون الاتكاء على أي شيء خارجي.

---

[1]– انظر كتابنا **الإبداع والحضارة عند شكري عياد**. القاهرة: دار التلاقي للكتاب، 2010. وصدرت إلكترونيا في الكتاب الأول في هذه السلسلة (أغسطس 2015). ويوجد رابط تحميله في نهاية هذا الكتاب.

obeikandi.com

النص مفعم بالحضور الحضاري، فكل وحدة أو لبنة منه تشي بما خارج النص، فالتواصل بين النص وخارجه موجود بقوة في كل نص أصيل، ذلك النص الذي كتبه مبدع حقيقي يبغي وجه الله والأدب والوطن، ولا يبغي الفرقعة أو لفت الانتباه إلى نفسه أو الاختلاف لمجرد الاختلاف أو تقليد أشكال غربية أو غريبة دون أن يعي بعوالقها الحضارية التي تتنافي مع حضارتنا وتراثنا وهويتنا. فالأدب من الأشياء التي لها قداسة خاصة، قداسة مرتبطة به منذ البداية، فمفهوم الأدب يرتبط منذ بداياته الأولى، خاصة في شكله الشعري، بالعرافة والكهانة والنبوة، أي إن له دوراً قيادياً وريادياً في الحضارة التي يتوجه إليها ويكتب من خلالها ولها؛ ومادام كذلك، فإنه مسؤولية، ومن ثم على الأديب أن يسأل نفسه دوماً: لماذا يكتب؟ وماذا أنجز؟ وهل قدم شيئاً ذا قيمة لحضارته؟، قد تكون هذه القيمة مجرد قيمة وجدانية وربما قيمة ترفيهية أو فكاهية، وقد تكون قيمة ثقافية كبرى، بالمعنى الواسع للثقافة. باختصار، له قيمة أياً كانت درجة هذه القيمة أو نوعها. ولا تخلو هذه القيمة من التواصل، أي

obeikandi.com

أن يبني الأديب جسوراً تصله بالمتلقي حتى يتمكن هذا المتلقي من التحاور معه ومع نصه، ومن ثم من لا يهتم بالقارئ أو المتلقي لا يلوم إلا نفسه عندما لا يجد له جمهوراً، ولا يحق له أن يشكو من جهل القارئ أو فساد ذوقه أو ضحالة فكره. ما معنى أن أكتب دون أن أتواصل مع القارئ؟ سؤال لابد أن يطرحه كل كاتب على نفسه قبل أن يخط بقلمه أية كلمة.

حاولنا في هذه الدراسات أن نربط المنطوق أو المكتوب بالمسكوت عنه في النص، والمسكوت عنه ذو طابع حضاري بوجه عام، أي أن يستخدم الكاتب لفظاً معيناً أو عبارة معينة ذات روابط حضارية ما في ثقافتنا ويوظفها داخل النص، ولا نملك هنا إلا أن نربط هذا اللفظ أو هذه العبارة بدلالاتها الأصلية ثم نربط بينها وبين منظومة العلاقات الدلالية داخل النص، ومن ثم ينفتح النص على السياق الحضاري "العربي" بوجه خاص، وقد يقيم بعض الوشائج بينه وبين السياق الحضاري العام، خاصة فيما يتعلق بالإحالات إلى القصص الدينية المشتركة بين الأديان

السماوية الثلاثة، أو بعض الأساطير التي اتخذت طابعاً عالمياً. وأثناء تناولنا ذلك لم نتقيد بفلسفة معينة أو مدرسة محددة، فلم نكتب إلا ما نحس به وندرك معناه، حتى يصل ما نقوله إلى القارئ الذي نبغي التواصل معه في المقام الأول في ضوء النصوص التي نتناولها؛ ويستتبع ذلك أن يكون الأسلوب الذي نكتب به قادراً على الوصول إلى كل أنواع القراء، فلا نتعالى على القارئ العادي كما يفعل جزء كبير من النقاد في الوقت الحالي، لأن الوصول إلى القارئ أول درجات النجاح وميزة تحسب للنقد، لا عليه.

لا يعني انفتاح النص على السياق الحضاري أن هذا النص صورة فوتوغرافية أو كربونية من الحضارة، فالنص قد يستدعي سياقاً حضارياً ما لكي ينقضه أو يحوره أو يبدل العلاقات بين عناصره أو ينطلق منه ويبني عليه. فالانفتاح انفتاح واع، ليس مثل الانفتاح الاقتصادي الذي أدى بنا إلى النزعة الاستهلاكية في كل شيء، أو الانفتاح الثقافي تحت اسم العولمة الذي سيؤدي، لو اكتمل، إلى طمس هويتنا تماماً. الانفتاح هنا يقيم حواراً مع السياق الحضاري، ومن الطبيعي

أن يكون في هذا الحوار قدر من الاختلاف والمناورة، إن جاز لنا أن نستخدم هذه الكلمة هنا. ويتضمن ذلك الالتفات إلى خصوصية النصوص موضوع التناول، سواء أكانت هذه الخصوصية على مستوى صياغة العبارة القصصية أو الجملة الشعرية، أم على مستوى البناء الكلي للنص، أم على مستوى الرؤية الكامنة في خلفية النص بمثابة "النفَس" الذي يهبه الحياة والتفرد. فلا ننس طوال الدراسة أن ما نتناوله أدب، أي طريقة خاصة في التعبير لها تقاليدها وشفراتها وتفردها، إلا أن هذه الجوانب الخاصة لا تنغلق على نفسها، بل تشيد جسوراً قوية بينها وبين الخارج، سواء أكان هذا الخارج متمثلاً في العرف الأدبي أم العرف اللغوي أم الإطار الحضاري. وإصرارنا على جعل العرف هنا خارج النص تأكيد للإبداع الأصيل وتفعيل لتفرد رؤية المبدع، سواء أكان هذا التفرد على مستوى الشكل أم المضمون، لأن كل إبداع متفرد ينطوي على قدر من المجاوزة والخروج.

هناك نقطة أخرى يجب علينا أن نشير إليها هنا. وهي أننا اعتمدنا في هذه الدراسات على ربط النصوص التي

يشتمل عليها الديوان أو المجموعة القصصية ببعضها البعض، ذلك لأن هذه النصوص نتاج عقل واحد، ونقصد بالعقل هنا الإنسان الفنان ذا الرؤية الإبداعية التي تتوزع على النصوص المختلفة التي أبدعها، أي إن صاحب هذه الرؤية هو "المركز" الذي تتمحور حوله النصوص، وليذهب كل التفكيكيين إلى الجحيم بـ"اللامركز" الذي يدعون إليه. فالنصوص تكتنفها وحدة عضوية جلية تمد قنوات الاتصال فيما بينها وتوحدها في كلٍ به قدر من الانسجام والتنوع والاختلاف كذلك، وهل هناك إبداع دون اختلاف، اختلاف عن الأصوات الأدبية الأخرى، واختلاف نصوص المبدع عن بعضها البعض، لأن كل نص إبداعي يختلف، في بعض الجوانب، عن غيره من النصوص حتى ولو كانت لنفس الكاتب ويرجع ذلك إلى أن طباعة نصوص معينة في كتاب يكتنفها قدر من الانتقاء والترتيب وإعادة صياغة جوانب من بعض النصوص حتى تلائم الرؤية الكلية التي ينطوي عليها الكتاب، ثم يأتي عنوان الكتاب والعتبات المختلفة مثل الإهداء والمفتتح وتصميم الغلاف ليسهموا في بلورة هذه الرؤية، أو

على الأقل بلورة بذورها التي ستنمو بعد ذلك وتشكل الكتاب ككل. ومن هنا ربطنا النصوص ببعضها البعض، ولم ينبع ذلك من تصور نظري مسبق بعيد عن روح النصوص ذاتها، فالقراءة المتأنية لهذه النصوص ومعايشتها قبل البدء في الكتابة كشفت عن روابط عديدة تجمع بينها، مما يدل على القصدية من قبل المؤلف في الاختيار والترتيب والإخراج النهائي للمطبوعة.

هناك سؤال أخير قد يثيره عنوان كتابنا في ذهن القارئ، ألا وهو: لماذا سلسلة "**بدايات القرن**" بالذات؟ من الملاحظ أن هذه السلسلة أثبتت وجودها على الساحة الأدبية ولفتت الأنظار إلى نفسها بطريقة تلقائية عفوية، وقدمت أصواتاً متميزة، منها من ينشر لأول مرة مجموعة كاملة أو ديواناً كاملاً، ومنها من سبق له النشر وجاء كتابه في هذه السلسلة مرحلة جديدة في تطوره الإبداعي. كما أن هذه السلسلة أو الجماعة تضم أصواتاً ذات توجه إبداعي حقيقي، تكتب لوجه الله والأدب والوطن، ولا تهدف للشهرة أو لمبدأ "خالف تعرف" أو أي شيء من هذا القبيل. ومن الجدير

بالذكر أن هذه الأصوات لم تتفق على "مبادئ" معينة في الكتابة كما يحدث في المدارس الأدبية المعينة التي تصدر أعمالها بمانيفستو أو بيان معين لكي تنظّر لإبداعها أو "لاإبداعها". فأصوات "**بدايات القرن**" تجمع بينهم التوجهات الأدبية الأصيلة، ولكل منهم الحق في التعبير كيفما يشاء في ضوء هذه التوجهات.

وأخيرا، برغم تميز جماعة "**بدايات القرن**"، إلا أنهم لم يلقوا التقدير النقدي الجديرين به، لذلك تأتي هذه الدراسة لتعايش نصوصهم وتقدمها للقارئ، أو بالأحرى تتحاور مع القارئ بشأنها، ومن ثم توفيهم قدراً من حقهم. وبما أن المساحة ضيقة لا تسمح بأن نتناول كل ما صدر في سلسلة "**بدايات القرن**"، اخترنا منها بعض النماذج الدالة، وهي ديوان (**لا وقت يبقى**) لعبد الحكم العلامي، وديوان (**وَلِيَ اختيارُ الأرض**) لخالد الأنشاصي، ومجموعة قصص "**روج أبيض**" لزاهر الغازيابي، وكلها طبعت عام 1998.

obeikandi.com

وفي النهاية تبقى كلمة: كل ما جاء في هذه الدراسة يمثلني ويعبر عن رؤيتي، وأنا مسؤول عنه - وكل كاتب مسؤول - أمام نفسي وأمام الله وأمام القارئ، وأتمنى أن أتواصل به مع القارئ، وأن يكتب في قائمة حسناتي. مع العلم بأن ما كتبته مجرد وجه من وجوه قراءة النصوص، ولا ينفي أية قراءة أخرى أو حتى مغايرة، فكلنا في الخلاف أحباء.

د. جمال محمد عبد الرؤوف محمد الجزيري

الجيزة 2001/9/26

obeikandl.com